وزارة الاوقاف
منشورات مجلة الرسالة الاسلامية
٦

معركة حطين
وتحرير بيت المقدس

تأليف
سليم طه التكريتي

مطبعة وزارة الاوقاف - بغداد

وزارة الاوقاف

منشورات مجلة الرسالة الاسلامية

اخي الاستاذ علي غالب البحري
مع خالص تحياتي الاخوية
سليم طه التكريتي
١٢/١٠/٩٨٥

معركة حطين وتحرير بيت المقدس

تأليف

سليم طه التكريتي

١٣٩٩ هـ

١٩٧٩ م

مطبعة وزارة الاوقاف ـ بغداد

محتويــات الكتــاب

الاهــــداء ...

الامــة العـربية الاســلامية التي انجبت صلاح الدين الايوبـي واســتردت عزتهــا وكرامتهـا علـى يده حين حـرر فلسطين بعـد احتــلال دام قرنين كاملين ، هذه الامــة لن تعجز عن انجـاب بطــل منقــذ مثلـــه ..

والى ان يظهــر هذا البطل المرتقــب سيظل العرب يقدمون الضحايا من ابنائهــم لدحــر الصهيونيــة ، الصليبية الجديــدة ، واستعــادة فلسطيــن ..

فالــى ابنــاء العــروبة والاسلام الذين استشهدوا منــذ ظهـــور اول مقــاومة لتهويــد فلسطين في اعقــاب الحــرب العالميــة الاولى وما بعدهــا ، والى الشهــداء الجدد الكثيريــن الذين سيستشهدون فــي سبيــل تحرير فلســطين اقدم معركــة حطين اكبارا لشهادتهــم وتذكيرا لبنــي قومهــم بــان لا يتخلــوا عن الكفــاح ولا يستسلــموا لليهــود وللاستعمــار وللمتاجريــن بقضيــة فلسطين مــن عـــرب [illegible] حاكميــن ومحكوميــن ..

ســليم طـه التكريتـي

تمهيد

تفخر الامم الحية بما تقدمه للانسانية من اسباب الخير ووسائل التقدم كما تفخر بامجادها السابقة سواء تمثلت تلك الامجاد في رد عدوان وقع عليها ، او تحقيق انتصار لها في معركة من معارك التحرر والاستقلال .

ولقد خاضت الامة العربية في تاريخها الطويل معارك عديدة لا تحصى خرجت منها ظافرة منتصرة مرفوعة الجبين متوجة باكاليل النصر .

ومن بين تلك المعارك الغر المحجلة في التاريخ العربي الاسلامي معركة (حطين) التي غيرت مجرى التاريخ البشري كله ، واحدثت تبدلا اساسيا فيه .

فقد كانت تلك المعركة الفصل الاخير في الغزوات التي شنتها اوربا على العالم العربي الاسلامي ، والتي عرفت في التاريخ باسم الغزوات الصليبية ، والتي استهدفت احتلال الشرق العربي برمته ، واقتطاع فلسطين وثغور لبنان وسوريا بصفة خاصة من الوطن العربي الكبير ، وتمزيق بلاد المسلمين واخضاعها للاحتلال الاوربي المستديم .

والامة العربية ، بعد النكسة الجديدة التي تعرضت لها بالعدوان اليهودي الجديد واحتلال اليهود اجزاء واسعة اخرى من اراضيها ، اذ تذكر اليوم معركة حطين وتفخر بها فانما ينبغي لها ان لا تكتفي بهذه الذكرى ذاتها ، وان لا تقف عند حد التفاخر بها . ذلك لان قيمة

الذكـرى تكمن فيما تفتحه امام ابصـار الامة من حقائق ، وفيما تمهده لهـا من السبل كيما تعاود سيرتها الصالحة في الطريق الذي حقق لهـا النصـر ، ولتلقن ابناءهـا دروسا قيمة في معنى الاتحاد والتضحية والفداء ليصمـدوا في معارك جديدة امام اعدائهـم مثلمـا صمد آباؤهم مـن قبل ، وليبرهنـوا بالعمل انهم من نسـل اولئك الآباء ، وانه يحق لهـم ان يفاخـروا ويتباهوا بمآثـر الآبـاء والاجـداد .

والنكبـة الجديدة التي نكبت بهـا الامـة العربية والامة الاسلامية معـا في فلسطين ، لا يمكن محوها بمجـرد التفاخـر بالامجاد والانتصارات السالفـة ، ولا مداواة الجراح العميقة الغامرة التي احدثتهـا في قلـب الامـة بمحض المباهـاة والادعـاء .

فلابد وان يطرح ذلك كله جانبا واعداد الامـة اعـدادا حقيقيـا صادقـا لمعركة جديدة تخوضهاضد العدو الغاصب بعقـول وضمائـر واساليب جديدة تختلف عما سارت عليه الحكومات العربية حتى الآن وترتفـع بها الى المستوى الحقيقي للمعركـة .

والتحدث عن معركـة حطين الكبرى التي حقق فيها ابن العـراق البار وبطل العروبة والاسـلام ومنقذ الشرق صلاحالدين الايوبـي اعظـم انتصـار شهده التأريخ البشري في القرن الثاني عشر بسحقه جيوشـس الصليبيين في فلسطين وتحريره بيت المقدس ، ان التحدث عن هذه المعركة انمـا يقصـد به العبـرة النافعـة والعظة الغالية قبل المفاخرة والتعالي والمباهـاة التي كانت من بين العوامل الاساسية لنكبة العرب الكبـرى الحاضرة وضيـاع فلسطين وتسلط العصابات اليهوديـة عليهـا .

الفصل الاول

العالمان الاسلامي والاوربي

قبيل الحملات الصليبية

بدأ التمزق في الامبراطورية العربية الاسلامية بسقوط دولة بني امية وقيام الدولة العباسية مكانها .

فقد كان اعتماد الدولة العباسية على العنصر الفارسي ، الذي كان له الاثر الاول في تقويض الدولة الاموية العربية النقية ، من الاسباب الاولى لحدوث الانحلال في الامبراطورية العربية الاسلامية ذلك لأن ما هدف اليه الفرس من بث الدعوة للعباسيين واثارة الفتن والحروب ضد الامويين ليس تسليم الحكم الى العرب ممثلا في بني العباس ، وانما تمزيق الدولة العربية ، وان تكون لهم ، اي الفرس ، اليد الطولى في الحكم الجديد وهذا ما ظهر بارزا في زمن السفاح وفي عهد المنصور حين اصبحت شؤون الدولة العباسية كلها تدار من قبل العناصر الفارسية الموغلة في عدائها للعرب والمتطلعة الى فصل ايران عن الامبراطورية العربية الاسلامية واعادتها الى ما كانت عليه قبل الفتح الاسلامي .

ولذلك كان قيام دولة بني العباس ايذانا بحدوث تمزق واسع في الامبراطورية العربية الاسلامية وقد ظهر هذا التمزق ظاهرا في انفصال الاندلس عن الدولة العباسية وقيام الدولة الاموية الاندلسية .

وزاد من حدة التمزق داخل الامبراطورية العباسية وقوع الحرب ، بفعل الفرس وتآمرهم ، بين الاخوين الامين والمأمون وقيام اول حكومة فارسية مستقلة داخل الامبراطورية العباسية في خراسان هي الدولة الطاهرية التي سمح المأمون للفرس باقامتها هناك جزاء معاونة اهل خراسان له في حربه ضد اخيه .

وضاعف من هذا التمزق ظهور العنصر التركي واستيلائه على شؤون الدولة عن طريق الحرم والقصور الملكية وضعف الخلفاء العباسيين الذين غدوا في العهود الاخيرة لعبة بأيدي الغلمان المتسلطين من الاتراك والفرس .

ويمكن ان يعتبر عهد السيادة العربية في الدولة العباسية منتهيا بانتهاء خلافة المعتمد بالله سنة ٨٩٢م .

فمنذ ان خلفه المعتضد الذي اعاد مقر الخلافة في سامراء الى بغداد في تلك السنة بدأ التدخل الاجنبي في الدولة ظاهرا بارزا حيث ظهرت الدولة الغزنوية سنة ٩٦٢ م فيما وراء النهر وامتدت الى بعض اجزاء ايران والعراق وكانت الدولة الزيارية قد سبقتها الى الظهور سنة ٩٢٨ م ثم قامت الدولة البويهية ، وهي فارسية ، سنة ٩٤٦ م والدولة السامانية سنة ٩٧١ م وهي من الدول الفارسية ايضا .

واعقب ذلك ظهور الدولة السلجوقية التركية سنة ١٠٥٥ م وظهور دولة بني حمدان العربية في الموصل واطراف البادية سنة ٩٢٩م الى ان سقطت الخلافة العباسية على يد هولاكو سنة ١٢٥٨ م .

وكانت هذه الدويلات في ظهورها واختفائها مدعاة للتصادم والحروب اذ كانت الواحدة منها تغير على الاخرى وتتحالف بعض هذه الدويلات وهي اسلامية مع العدو الغاصب ضد دويلة اسلامية اخرى مثلها وكان لا يمر عام واحد من دون خروج عدد من الولاة او قادة الجيش على الحكومة العباسية وتمردهم ضد الخليفة وعزله او قتله وتنصيب آخر مكانه .

والى جانب ذلك ظهر الاخشيديون الاتراك في مصر والشمال الافريقي ثم انتزع الفاطميون الحكم منهم وانشأوا لهم دولة في مصر ولقبوا انفسهم بالخلفاء على غرار ما كان موجودا في بغداد .

حين انقضى النصف الاول من القرن الحادي عشر الميلادي كانت العراق وبعض بلاد الشام وفلسطين تخضع لحكم السلاجقة الاتراك

بينما كانت مصر تدين للفاطميين وفي الوقت ذاته اخذ نورالدين زنكي يوطد اقدامه في دمشق وحلب ويسعى لضم الموصل اليهما وتكوين دولة مستقلة له في تلك الارجاء .

وزاء هذا الضعف الظاهر في الدولة العباسية وجدت دولة بيزنطية (روما الشرقية) التي كانت تحكم القسم الاوربي من تركيا ومقره اسطنبول وجدت ان الفرصة مواتية امامها لتوسيع مملكتها على حساب الاراضي العربية الاسلامية وبذلك بدأت بالاغارة على بلاد الشام فاحتلت عدة مدن منها انطاكية .

ولقد ارتكب الفاطميون خطأ فادحا جدا بعدم وقوفهم الى جانب السلجوقيين اخوانهم في الدين الاسلامي ضد البيزنطيين ومساندتهم في دحر العدوان البيزنطي ، فعلى النقيض من ذلك استغل الفاطميون فرصة انشغال السلجوقيين بالحرب مع الروم البيزنطيين فهاجموا فلسطين واستولوا على بيت المقدس وهادنوا الدولة البيزنطية بدلا من ان يتصدوا لها بل ذكر بعض المؤرخين من العرب والاوربيين ان الفاطميين وقعوا اتفاقا سريا مع امبراطور بيزنطية ضد السلجوقيين .

على ان النقطة الهامة في الموضوع التي نود التأكيد عليها في هذا الشأن هي ان العالم العربي الاسلامي ظل رغم تفككه وانقسامه ذاك يمسك بزمام التجارة العالمية وظلت كل الموانيء في بحار الابيض المتوسط والاحمر والعربي تخضع للنفوذ العربي الخالص ، وبقيت الاساطيل العربية تستأثر بنقل السلع والمنتجات من الصين واليابان والهند وبلاد العرب وافريقيا الى موانيء البحر الابيض المتوسط والى جنوه والبندقية وبيزا وغيرها من الموانيء الاوربية .

ولم يكن العالم الاوربي في ذلك الوقت بافضل حالا من العالم العربي الاسلامي .

فقد كانت اوربا تخضع حينذاك لاقطاعات وحكومات متخاصمة متنافسة وكان المجتمع الاوربي يتألف من ثلاث طبقات هي طبقة رجال الكنيسة وطبقة الاشراف والنبلاء من امراء الاقطاع وطبقة الاقنان

من الفلاحين وكان الحكم منحصرا في يدي رجال الكنيسة وامراء الاقطاع وكان نفوذ الكنيسة المتمثل في شخصية البابا هو النفوذ المتميز في اوربا كلها .

وحين بدات الدعوة داخل اوربا لغزو الشرق الغربي الاسلامي وجد كل من رجال الطبقات الثلاث من المجتمع الاوربي ضالته فيها وخيل اليه ان عملية الغزو تلك ستغير احواله الى ماهو احسن وافضل وتعود عليه بالخير والفائدة ..

وعلى الرغم من التأثير الديني في تهيئة اذهان الاوربيين للحروب الصليبية ودفعهم الى خوض غمارها فان العامل الاقتصادي كان هو العامل الحاسم في هذا الشأن وكان هو الهدف الرئيس من شن تلك الحروب .

فقد كانت الشعوب الاوربية تعيش في درك واطىء من الفقر والعوز تعصف بها الضرائب الكثيرة وترهقها اعمال التسخير والتشغيل الاجباري وتفتك بها المجاعات سنة بعد اخرى ولذلك خيل للطبقات الفقيرة ان ذهابها لغزو بلاد المشرق الاسلامي سيهيىء لها الغنائم والاسلاب ويحررها في الوقت ذاته من ظلم رجال الاقطاع واعتداءاتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه دول اوربا ، ولاسيما البحرية منها التي غاضها ان تظل التجارة العالمية وقفا على العرب والمسلمين وحدهم، تتحين فيه الفرص للوثوب ضد العالم الاسلامي وانتزاع مراكز التجارة العالمية من يديه ، والاستحواذ على ما يزخر به من نعيم وخيرات .

فالطمع والربح والاستيلاء على الغنائم كان هو الدافع الرئيس الذى دفع برجال الكنيسة والاقطاع والطبقات الفقيرة الى شن تلك الحروب

وقد وضحت الغاية الاساسية من الحروب الصليبية وهي الكسب المادي حتى في الخطبة التي القاها البابا ادريان الثاني فهو لم يستطيع ان يخفي القصد الحقيقي من الحملات الصليبية حين اخبر قومه قائلا « ليس القصد من هذه الحرب الاستيلاء على مدينة واحدة مثل بيت المقدس وحسب ، وانما الاستيلاء على اقاليم اسيا كلها بما تملكه

من كنــوز وخزائن لا تحصـــى » .

فالذي استهدفته اوربا برمتها من وراء الحروب الصليبية ليس خدمـة المسيحيين وانقـاذ بيت المقدس من المسلمين كما زعم القوم وانما هو كسـب المال وجمع الثروات واقامة المستعمرات وانشاء المراكـز القويـة داخل الاراضي العربية الاسلامية للتحكم بالتجارة العالمية من جهة ومن جهة ثانية الحصـول على اكبر قدر ممكن من الشرق .

وقد اوضح احد المؤرخين الغربيين هذه الحقيقـة حين قـال ان الحروب الصليبية كانت اول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الامـم الاوربية خارج حدود بلادهـا لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق .

وكـان لامبراطور بيزنطية اثـره الفعال في اثارة الحروب الصليبية وذلك بسبب ما وجهه من تحريض وترغيب لدول اوربا وللبابا بصفـة خاصـــة .

فقد عجزت الدولـة البيزنطية عن الصمود امام الغارات الاسلاميـة المتواليـة عليها ولذلك وجدت في النصرانية خير وسيلة تثير بها اوربـا ضد العرب والمسلمين ، واستعادة مراكز قوتها في الشرق ، والتمهيـد لاحتلال موانىء البحـر الابيض المتوسط تحت سـتار استعادة بيـت المقـدس من ايدي العرب والمسلمين وقد استنجـدت الامبراطوريـــة البزنطيـة باوربـا بعد الهزيمة الشنيعة التي منيت بها علـى ايـدي السلجوقيين في معركـة « ملازغرت » [مانزيكرت] التي وقعت عـام ۱۰۷۱م شمالي بحيرة وان في شمال الاناضول حين انتصـر السلطـان السلجوقي الب ارسـلان في تلك المعركة على الامبراطـور ديوجينيس رومانوس الذي وقـع نفسه اسيرا في تلك المعركـة .

الفصل الثاني

الحمــــلات الصليبيــــة

بهذه الدوافع المختلفة التي اشرنا اليها في الفصل السابق اندفعت اوربا نحو الشرق متجهة الى فلسطين وبلاد الشام في الدرجة الاولى في سلسلة من الغزوات او الحملات التي عرفت في التأريخ باسم الحملات الصليبية لان افرادها كانوا يحملون على صدورهم اشارة الصليب شعار النصرانية ، وقد اختلف المؤرخون في تحديد عدد الحملات الصليبية فقال البعض انها بلغت ثلاث عشرة حملة ، واختصرها البعض الآخر الى ثماني حملات .

والحقيقة ان الحملات الصليبية لم تنقطع عن التدفق على الشرق العربي الاسلامي طيلة مائتي سنة ، لان سيول الصليبيين كانت ترد طوال السنة رغم تسمية الحملات الكبرى وتعدادها .

على ان المتفق عليه بين اكثرية المؤرخين هو ان اهم الحملات الصليبية كانت عشرا .

وقد بدات الحملة الصليبية الاولى سنة ١٠٩٣م حين استطاع بطرس الناسك ان يجمع حوالي تلثمائة الف مقاتل من مختلف انحاء اوربا ، وان يجعل من مدينة (كولون) بداية لتحرك هذه الحملة الى الشرق مارة بنهر الراين ثم مصعدة الى المانيا ومنحدرة الى وادي الدانوب حتى بلغراد عاصمة يوغسلافيا ومنها اجتازت الحملة الى هنغاريا وهي مؤلفة من عشرات الالوف من الفرنسيين والالمان والطليان الذين كان البعض منهم قد اصطحبوا نساءهم واطفالهم في هذه الحملة ايضا وفي هنغاريا تعرضوا الى مهالك عديدة بسبب عدم معرفتهم بالطريق ونشوب معارك بينهم وبين الهنغاريين حتى اذا وصلت البقية من الحملة الى اسطنبول كانت في حالة يرثى لها من الفوضى وضعف

الرجال والسلاح والمتاع بالاضافة الى اغارة هؤلاء الصليبيين على ماكان يملكه البزنطيون في القرى من ماشية ومتـاع .

وعبـر الصليبيون مضيق الدردنيل الى البـر الاسيوي فاطبقوا على مدينة هرسك الصغيرة واقاموا لهم فيها معسكرين ثم صعدوا من هناك مع وادي نهر دراكون فاحاطوا بمدينة « نيقسيا » لكنهم ما لبثوا ان تخلـوا عنها بعد ان عجزوا عن افتتاحها فاندفعوا نحو قلعة اكسر غوردون فاستولـوا عليهـا .

وكانت خطة المسلمين في القتال تقضي بالتخلي عن هذه القلعة دون كبير قتال ثم السماح للصليبيين بالدخول اليها ومن ثم قطع موارد الماء عنهـا والسيطرة على الطرق المؤديـة اليها ونفذ المسلمون هذه الخطـة بدقـة حتى اذا نفذت اخـر قطرة من الماء في القلعة اخذ الصليبيـون يقتلـون دوابهم ويشربون دماءهـا كما اخذوا يمتصون التراب الرطب في سراديب القلعـة وفي اليوم الثامن لهذا الحصار اضطر الصليبيون الى الاستسلام ولم ينج منهم الا من قبل بالدين الاسلامي دينا وعقيدة لـه وبعث قائد المسلمين السلطان السلجوقي ارسلان بن سليمان بجواسيسه الى معسكر الصليبيين في هرسك ليشيعوا فيه نبأ استيلاء رفاقهـم الصليبيين على نيقيا ، وظفرهم بغنائم كثيرة فيها فاندفع افراد المعسكر نحو تلك المدينة في حين كان المسلمون قد اعدوا لهم الكمائن العديدة فـي المضايق وغيرهـا حتى اذا اقترب الصليبيون من تلك الكمائن انهـال المسلمون عليهم من كل صوب فاعملوا السيف برقابهم فاثخنوهم قتـلا وتجريحـا وتعقبوا المنهزمين منهم فراحوا يقتنصونهم ، وكانت خاتمـة هذه الحملـة انه لم ينجح من افرادهـا الذين قدر عددهم بثلثمائة الف شخص سوى ثلثمائة تم انقاذهم على يد اسطول بعث به امبراطور بيزنطية حيث نقلـوا الى اسطنبـول واسكنوا فيها انتظارا للحملـة الجديدة .

* * *

وكانت الحملـة الصليبية الثانية هي اهم الحملات وذلك بسبب ما لاقتـه من نجـاح في اختراق ديار الشام وفلسطين واحتلالهـا بيـت المقـدس .

وقد تحركت هذه الحملة التي زاد عدد افرادها عن اربعين الف محارب من فرنسا في سنة ١٠٩٥م يقودها عدد من امراء اوربا وكانت آية في التنظيم سواء من حيث نوعية افرادها الذين كانوا جلهم من المدربين على حمل الاسلحة ، ومن حيث الضبط والنظام وكان في الحملة عدد كبير من الحدادين وصانعي الاسلحة ايضا .

وتعقبت هذه الحملة ذات الطريق الذي سارت فيه الحملة الاولى فعبرت الدردنيل ومرت بمدينة هرسك ثم وصلت الى قلعة نيقيا فحاصرتها .

وهنا ارتكب السلطان ارسلان غلطة كبرى اذ خيل اليه ان افراد هذه الحملة لا يختلفون عن سابقيهم في الحملة الاولى ولذلك لم يستعد لقتالهم الاستعداد الكافي وقبل ان يرتاح جنوده من حملة كانوا فيها قذف بهم في المعركة فخاضوها ببسالة نادرة ، لكن كثرة الصليبيين وتفوقهم في السلاح ادى الى خسران المسلمين المعركة وتحصن البقية منهم في القلعة واستسلامهم فيما بعد للبيزنطيين بدلا من الصليبيين ولقد اظهر الصليبيون منتهى الوحشية والفظاعة ضد المسلمين فقد قطعوا رؤوس جميع من وقع من المسلمين اسيرا لهم وقذفوا بهذه الرؤوس من فوق اسوار قلعة نيقيا لاخافة سكانها واجبارهم على الاستسلام .

كان السلطان ارسلان قد ترك نيقيا واتجه الى الجبال شرقا واستطاع ان يصلح ما فسد بينه وبين امراء تلك المناطق والتحالف للوقوف صفا واحدا بوجه الصليبيين .

وكان الصليبيون في الوقت ذاته قد واصلوا زحفهم متجهين نحو انطاكية وعلم السلطان بذلك فاعد لهم خطة حكيمة هي استدراجهم الى الاراضي الجرداء التي تقل فيها ابار الماء لانهاكهم على ان يدخل معهم في معركة قرب احد الانهار . وكادت تنجح هذه الخطة في اول الامر لكن الصليبيين تفوقوا على المسلمين في السلاح في هذه المرة ايضا حيث وقعت معركة دوريلبوم [اسكي شهر] في الثلاثين من حزيران سنة ١٠٩٧م وكادت الدائرة تدور في هذه المعركة على الصليبيين لو لم تصلهم

النجدات القوية الوفيرة في الوقت المناسب وهكذا انتهت معركة اسكي شهر بهزيمة المسلمين وتركهم مئات القتلى وراءهم .

وواصل الصليبيون زحفهم فاحتلوا انطاكية ثم توجهوا منها نحو بلاد الشام وفيما كانوا في زحفهم اتصل بهم بعض النصارى من قلعة الرها وحبذوا لهم الاطباق على المدينة واحتلالها من ايدي المسلمين فاستجاب الصليبيون لهذا الطلب وزحفوا نحو الرها واستولوا عليها وتوج احد قادتهم « بلدوين » ملكا على الرها .

وباحتلال الصليبيين لانطاكية الحصينة انفتح الطريق امامهم نحو بيت المقدس حيث ساروا مع الساحل فمروا بصيدا وصور وعكا ويافا ومن يافا استداروا نحو الداخل وعسكروا في المضيق الجبلي الذي يفصل بيت المقدس عن البر .

ولم يلاق الصليبيون في زحفهم نحو القدس اية مقاومة منظمة ذلك ان الفاطميين الذين كانوا يحتلون المدينة منذ ان اشتبك السلاجقة مع الصليبيين من افراد الحملة الاولى ، لم يأبهوا بالدفاع عنها اطلاقا ، وقد مكث الصليبيون زهاء شهر عند اسوار المدينة وفي ليلة مظلمة اغاروا على بيت المقدس فاحتلوه وذبحوا كل من عثروا عليه من المسلمين هناك لا فرق بين الكبير والصغير حتى بلغ عدد قتلى المسلمين في المدينة اكثر من سبعين الف شخص ، وبعث الصليبيون برسالة الى البابا يقولون له فيها انهم قتلوا عددا لا يحصى من المسلمين وان خيولهم في هيكل سليمان داخل المدينة كانت تخوض حتى ركبها في بحر من دماء المسلمين .

وهكذا استولى الصليبيون على القدس في تموز ١٠٩٩م وانشأوا فيها مملكة اورشليم الصليبية . وكان الصليبيون قبل ذلك بسنة قد انشأوا مملكة الرها الصليبية ايضا ثم اضافوا الى ذلك مملكة انطاكية

كذلك انشأوا في سنة ١١٠٩م مملكة طرابلس وبذلك اصبحت لهم اربع ممالك في بلاد الشام وفلسطين بالاضافة الى القلاع المستقلة في جبيل وبيروت وصيدا وصور وحيفا وعكا وقيسارية وارسوف ويافا وعسقلان والكرك والشوبك وصفد وبيسان ومر جعيون وغيرها .

وظلت الحملات الصليبية تتوالى بعد ذلك حملة في اعقاب اخرى وكانت اخرها الحملة العاشرة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا وتوجه بها الى تونس محاولا افتتاحهاسنة ١٢٧٠م لكنها باءت بالفشل .

كانت ستراتيجية الصليبيين في احتلالهم الاراضي العربية تعتمد على دعامتين اساسيتين اولاهما الاعتماد على التمون بالعتاد والارتزاق من داخل اوربا ذاتها عن طريق البحر الامر الذي مكنهم من مواصلة القتال واستمرار الزحف داخل الاراضي العربية والصمود بوجه الجيوش العربية الاسلامية التي كانت تتصدى لهم .

اما الدعامة الثانية فهي اعتمادهم في الدفاع على القلاع والحصون التي كانوا يتحصنون فيها ، فقد كان البحر الابيض المتوسط يحمي الجناح الغربي للجيوش الصليبية بينما كانت هذه القلاع تحمي جناحهم الشرقي .

الفصل الثالث

ظهور صلاح الدين وتحقيقه الوحدة العربية الاسلامية

قدم شادي ، جد صلاح الدين ، وولداه ايوب وشيركوه من مدينة « دوين » في اومينيا عند بحر قزوين الى العراق فوصلوا بغداد واصبحت لهم حظوة لدى مجاهد الدين بهروز الذي كان يمثل سلطان السلاجقة في عاصمة الخلافة العباسية رغم وجود الخليفة العباسي فيها .

ولم يلبث بهروز ان اقطع لشادي وولديه مدينة تكريت فقدموا اليهاو سكنوا فيها وقد توفى شادي في تكريت ودفن فيها واقيمت على قبره قبة صارت تزار فيما بعد .

وما لبث الفساد ان دب بين بهروز والاخوين نجم الدين ايوب واسد الدين شيركوه وكان من اسبابه مساعدتهما عماد الدين زنكي الذي زحف على بغداد لكنه خسر المعركة وفر هاربا الى تكريت فانتقل منها الى الموصل فحلب . وكان من اسباب الفساد ايضا ان شيركوه قتل رجلا من اهالي تكريت من دون حق فتأثر اهل البلدة لذلك واستغله بهروز فامر الاخوين بان يخرجا من المدينة .

وتتفق معظم التواريخ على ان صلاح الدين واسمه يوسف ولد في تكريت في الليلة التي غادرها ابوه وعمه او قبل ذلك بليلة واحدة .

وكان طبيعيا ان يلجأ الاخوان الى عماد الدين زنكي الذي استقر له الامر في حلب وان يساعداه في توطيد اركان ملكه وان يتربى صلاح الدين تربية عسكرية عالية ويأخذ في التقدم وهو في مقتبل الشباب .

وحين توفى عماد الدين وخلفه ابنه نور الدين محمود اخذ هذا يسعى في تكوين جبهة اسلامية تستطيع ليس الوقوف بوجه الصليبين حسب وانما مهاجمتهم واخراجهم من ديار الاسلام .

وقد وجد نورالدين ان مصر تحت حكم الفاطميين تقف عقبة كأداء في سبيل انشاء هذه الجبهة ولذلك قرر انتزاع مصر من ايدي الفاطميين وضمها الى املاكه وانفذ لهذا الفرض جيشا يقوده اسدالدين شيركوه وكان مساعده في هذا الجيش ابن اخيه صلاح‌الدين وكان هذا الجيش قد خرج الى مصر في سنة ١١٦٤ فوصل الى اسوار القاهرة في ايار من تلك السنة .

وكان وزير الحاكم الفاطمي المتنفذ « شاور » قد اتصل بالصليبين سرا حين علم بخروج جيش شيركوه الى مصر وطلب اليهم ان يسارعوا الى احتلال مصر قبل ان يصلها جيش اسدالدين .

وحين كان اسدالدين يحتل مدينة « بلبيس » فوجىء بالصليبين وانصار شاور يحاصرونه من كل مكان وقد سوي الامر بان يعود اسد الدين وجيشه الى الشام ويعود الصليبيون الى فلسطين على ان يدفع شاور ثلاثين الف دينار الى اسدالدين شيركوه .

وبعد سنتين اي في كانون الثاني سنة ١١٦٧ قاد اسدالدين حملة اخرى نحو مصر وكان في صحبته صلاح‌الدين ايضا وعاد شاور يستنجد مرة ثانية بعموري ملك القدس الصليبي ولكن شيركوه كان اسبق في الوصول الى مصر من الصليبيين وحين وجد ان الفاطميين اشتركوا مع الصليبيين في مهاجمته حول طريقه الى الصعيد حيث دارت معركة « البابين » على مقربة من الاشمونين في مديرية المينا في اذار سنة ١١٦٧ م واشترك صلاح‌الدين في تلك المعركة اشتراكا فعليا وانتهت بانتصار شيركوه .

وجمع الصليبيون قواتهم المبعثرة وما تجمع لديهم من المصريين من اعوان شاور والخليفة الفاطمي فعسكروا قرب الفسطاط على الضفة الغربية من نهر النيل انتظارا للالتحام مع اسدالدين شيركوه . ولذلك اتجه شيركوه بقواته نحو الاسكندرية حتى اذا اصبح على مقربة منها تلقاه اهلها طائعين وفتحوا له ابواب المدينة ليدخلها في أمن وهدوء ، وبعد ان انتهى من ذلك ترك صلاح‌الدين نائبا عنه في الاسكندرية ثم غادرها متوجها الى الصعيد .

وبعد سنتين من هذا التأريخ اي في اذار ١١٦٩م توفى اسدالدين شيركوه بعد ان اكمل افتتاح مصر قبل ذلك التاريخ بشهرين فاصبح صلاح‌الدين يحتل منصب الوزارة بموافقة الخليفة الفاطمي العاضد وكان عمره آنذاك ، اي صلاح‌الدين ، لا يزيد عن احدى وثلاثين سنة .

واخذ نورالدين محمود زنكي ملك الشام يلح على صلاح‌الدين ان يسرع في خلع العاضد واستئصال الخلافة الفاطمية ولكن صلاح‌الدين كان يتأنى في تنفيذ هذه الحركة وما لبث العاضد واسمه عبدالله بن الفائز ، ان مرض ومات بعد ذلك بوقت قصير وعندئذ خطب في جوامع مصر باسم المستضيءبالله الخليفة العباسي وبذلك انتهى حكم الفاطميين واصبحت مصر تابعة لحكم نورالدين صاحب دمشق وحلب .

واخذت عقارب الحسد من صلاح‌الدين تدب في نفس نورالدين واشتد الامر بينهما وكاد يؤدي الى القتال المسلح .

وواتى الحظ صلاح‌الدين في هذه المرة ايضا فقد مات نورالدين وخلفه ولده اسماعيل الذي لم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره وعندئذ وجدها صلاح‌الدين فرصة ذهبية فطالب بان يكون هو الوصي على الطفل اسماعيل واتبع ذلك بان توجه الى الشام فعلا واذ سمع خصومه بذلك تركوا دمشق وهربوا الى الشمال واذ ذاك دخل صلاح‌الدين دمشق من دون قتال في ربيع الآخر سنة ٥٧٠هـ (١١٧٤م) ثم اعقب ذلك ببسط نفوذه على حمص وحلب والمعرة وما في بلاد الشام من قرى وحصون حتى اذا انتهى من ذلك عاد الى مصر .

ووافاه وهو في مصر نبأ موت الطفل اسماعيل واضطراب حبل الامن في بلاد الشام وقيام الارمن بالثورة فانطلق في سبعمائة فارس وصل بهم دمشق في صفر ٥٧٨ هـ (١١٨٢م) فانضم اليه جيشها واذ ذاك واصل سيره في كل المناطق فاستعاد سلطانه عليها امتدادا من ديار بكر والموصل الى دمشق فثغور طرابلس وبيروت ومنها الى مصر .

واذ كان صلاح‌الدين متهيأ لمنازلة الصليبيين وجد ان « الباطنية » وقد عرفوا فيالتاريخ باسم الحشاشين ايضا يترصدون حركاته للانقضاض

عليه واغتياله ثأرا للفاطميين وقد حاولوا اغتياله عدة مرات لذلك توجه الى معقلهم في « مصياد » بين حماة وطرابلس فحاصرهم فيها وضربهم بالمجانيق واوسعهم قتلا واسرا واسترد منهم كل ما نهبوه من اموال الناس وماشيتهم .

* * *

اخذ صلاح الدين الآن يعد العدة لتوحيد البلاد العربية في جبهة واحدة ضد الصليبيين .

فقد وجد بالتجربة ان التناحر بين الدويلات العربية والاسلامية وتنافرها كان من العوامل الاساسية التي مكنت الصليبيين من احتلال اجزاء هامة من الوطن العربي الاسلامي واقامة ممالكهم فيها .

كما وجد صلاح الدين ايضا ان اقتحام المواقع الصليبية في جبهة او جبهتين لا يمكن ان يحقق الانتصار عليهم وطردهم مادامت هناك جبهات اخرى مهادنة لهم ان لم تكن متفقة معهم .

ولقد تنبه صلاح الدين الى اهمية الوحدة العربية الاسلامية بعد الفتن وحركات التمرد التي جابهها في الشام وفي مصر في الوقت الذي كان يخوض فيه معارك متواصلة مع الصليبيين ، وبعد ان نقض الصليبيون عدة مرات اتفاقات الهدنة التي وقعوها معه .

وقد بدأ صلاح الدين خطوات الوحدوية بان حطم بقايا الباطنية واتباع العبيديين في مصر والشام ثم ضرب عربان الشرقية وجذام وثعلبة في دلتا النيل الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين ويمدونهم بالمؤن والفلال ثم انصرف في الوقت نفسه الى تحصين المدن المصرية المعرضة للغزو من امثال الاسكندرية ودمياط والقاهرة وغيرها .

راى صلاح الدين قبل ان يشرع في التفاوض مع امراء وسلاطين الممالك والدويلات العربية الاسلامية ويوحد كلمتهم على محاربة الصليبيين ان يسوي حسابه مع البيزنطيين ، فقد كان وجود البيزنطيين داخل اسيا الصغرى من الاسباب الرئيسة التي مكنت الصليبيين من احتلال ما احتلوه

من مواقــع بلاد الشام وفلسطين وكان وجود البيزنطيين بحد ذاته تهديدا مباشرا لسوريــا من الشمال وكان هذا التهديد يحول دون حشد قــوى المسلمين كلهــا في سوريــا ضد الصليبيين .

وقد ظهر هذا التهديد البيزنطي لسوريا جليا في الحركة التي قــام بهــا الامبراطور البيزنطي عمانوئيل الذي جهز جيشا قويا وسار بــه لضرب السلطان السلجوقي قليج ارسلان الثاني وسحق قواته .

وقد توجه عمانوئيل بجيشه الى « قونيه » مقر السلطان قليــج في ايلــول ١١٧٦م ولكن المسلمين طوقوا الجيش البيزنطي في ممر جبلــي وابادوه ولم ينج منه الا عدد قليــل .

ولقد استفاد صلاح‌الدين فيما بعد من هذا الاندحار الشنيع الذي اصيب به البيزنطيون ، فحين بدات اتصالات مع القسطنطينة لعقد هدنــة معهــا سارع الامبراطور البيزنطي الى ذلك فبعث في خريف سنة ١١٨١ بوفــد منه الى صلاح‌الدين حيث تم توقيع معاهدة صلح بين الطرفــين اطلق بمقتضــاه مائة وثمانين اسيرا من اسرى المسلمين لدى الروم .

وبعقد هذه المعاهدة استطاع صلاح‌الدين ان يضمن عدم مســاعــدة البيزنطيين للصليبيين اذا ما هاجمهم في الشام او عدم اشتراك الاسطول البيزنطي في اي هجوم قد يقوم به الصليبيون على مصر كما حدث مثــل ذلك قبــلا .

واذا كان صلاح‌الدين في هذا الوقت في هدنة عرضية مع الصليبيين فقد استغل الفرصة لتحقيق هدفه الكبير في الوحدة وقد شغلته في هذا الوقت الاحداث التي وقعت في الموصل وحلب حيث نصب خصوم صلاح الديــن عليهما عزالدين بن مسعود الاتابكي . واضاف امراء حلب الى ذلك انهم دخلــوا في مفاوضات مع الصليبيين واتصلوا ببقايا الباطنيــة

لانشاء جبهة متحالفة ضد صلاح وتحطيم جهوده الرامي الى انشاء الوحدة الاسلامية في المشرق .

هنا لم يجد صلاح الدين بدا من ان يبدأ العمل فيقضي على هذه المؤامرات ويحطم هذا التحالف الخائن ضده .

وفي ايار ١١٨٢ سار صلاح الدين بقواته من مصر متوجها نحو حلب فحاصرها لكنه ما لبث ان غير رايه فاتجه الى الموصل وحاصرها لكنه عجز عن احتلالها فتركها واستولى في طريق عودته على سنجار واشتبك مع القوات التي ارسلها امراء ماردين وخلاط لنجدة عزالدين مسعود صاحب الموصل وواصل سيره حتى بلغ حلب فاستولى عليها وضمها الى سلطانه ومن ثم دخل دمشق دخول الظافرين في هذا الوقت ساءت احوال الصليبيين في فلسطين بسبب الجفاف الذي حدث فيها وما نجم عنه من مجاعة وحدوث انشقاقات بين الامراء الصليبيين انفسهم الامر الذي دعا « ريموند » ملك القدس ان يدخل في مفاوضات مع صلاح الدين لعقد هدنة امدها اربع سنوات وكانت هذه الهدنة فرصة ذهبية بالنسبة لصلاح الدين لانها اطلقت يده في اكمال الجبهة الإسلامية الموحدة وجعلته يأمن شر غارات الصليبيين عليه في مثل ذلك الوقت .

في عام ٥٨١هـ (١١٨٥) حقق صلاح الدين هدفا عظيما عجز العرب والمسلمون عن تحقيقه لمدة تزيد على ثلثمائة سنة ذلك انه منذ انتهاء خلافة المتوكل تمزقت الدولة العربية الاسلامية الى ممالك ودويلات واقطاعات متخاصمة .

اما الآن فقد اصبح صلاح الدين ملء السمع والبصر في مملكة تمتد من ضفاف الفرات الى حوض النيل ومن بلاد اليمن الى اقاصي افريقيا ،

واصبح جميع السلاطين والامراء في تلك الاصقاع يدينون بالطاعة لـــه وامتثـــال اوامره ، لقد نجح صلاح في توحيد البلاد العربية في وقت كانت فيـــه احوج ما تكون الى الوحدة ، وقد كانت هذه الوحدة لا على اساس القـــوة والتسلط والاستبداد وتفضيل ابناء بلد على آخر وتولية عنصر على آخـــر غيره وانما قامت هذه الوحدة في ظل مبادىء انسانية خيـــرة ، واخـــلاق كريمة تنشد الحريـــة والحـــق والعدالـــة .

ومما يزيد من اهمية هذه الوحدة انها اتجهت منذ نشـــأتها الى تحرير البلاد العربية من الصليبيين وحلفائهم .

فبدافع التحرر من الحكم الاجنبي وبدافع الغيرة الوطنية والحميـــة القوميـــة سارت الجيوش العربية الاسلامية الجـــرارة تحت لواء صلاح الديـــن وتوافدت عليه الامدادات من كل صوب حتى حققت هدفهـــا الكبيـــر بسحق الصليبيين وتطهير ارض فلسطين والشام من ارجاسهم .

الفصل الرابع

ممهدات معركة حطين

حين انتهى صلاح الدين من توحيد الجبهة العربية الاسلامية بدا يعد العدة لتنفيذ مشروعه الكبير وهو طرد الصليبيين من المناطق التي استولوا عليها . وفي الفترة مابين سنة ١١٨٢ وسنة ١١٨٥ دخل صلاح الدين معارك عديدة مع الصضليبيين خسر واحدة منها وربح عدة معارك اخرى غيرها وكان صلاح الدين في باديء الامر قد فكر في انجاز مشروع يستطيع به ان يفصل مملكتي انطاكية وطرابلس الصليبيتين عن مملكة بيت المقدس وذلك باستيلائه على بيروت ، ولذلك توجه بقوات كبيرة من دمشق الى سهل البقاع لمهاجمة بيروت من البر بينما انفذ اخوه العادل اسطولا مؤلفا من ثلاثين سفينة لمهاجمة المدينة من البحر ، غير ان بلدوين ملك القدس ادرك هدف صلاح الدين فانفذ الاسطول الصليبي لمساندة بيروت حتى اذا طال حصارها تخلى صلاح الدين عنها عائدا الى دمشق كما اعاد اسطوله الى المياه المصرية .

في هذا الوقت اقدم امير « الكرك » الصليبي رنيودي شاتليون الذي يسميه العرب باسم « ارناط » على مغامرة كبرى هي انفاذه جيشا واسطولا كبيرين للاستيلاء على البحر الاحمر واحتلال مكة والمدينة وتدميرهما .

ونفذ ارناط مشروعه هذا بالاستيلاء على ميناء « ايله » في خليج العقبة وهو نفسه الميناء الذي احتله اليهود سنة ١٩٤٨ وسموه باسم « ايلات » وكان بلدوين الاول ملك القدس قد احتل هذا الميناء سنة ١١١٦ ثم استرده صلاح الدين سنة ١١٧٠ .

ولكي يستولي الصليبيون على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المقابلة لميناء ايلة في خليج العقبة فقد ارسل ارناط سفنا مفككة على ظهور الجمال ليتم تركيبها في خليج العقبة والابحار بها الى الحجاز .

واغار الصليبيون بعد ان ركبوا سفنهم على الموانىء المصرية على

البحر الاحمر ومنها ميناء عذاب المواجهه لميناء جـدة واخذوا يعيثون في البحـر الاحمـر فسادا يقتلون السكان وينهبون قوافل التجار والحجـاج ويصادرون السفن ولم يكتفوا بذلك بل نزلوا على شاطىء الحجاز قرب مينـاء « ينبـع » وشرع بعض الخونة من العرب يرشدونهم الى الطرق المؤديـة الى داخل الحجاز واسرع صلاح الديـن يأمر اخاه العادل في مصر بان ينفذ اسطولا كبيرا لضرب الصليبيين وطردهم من البحر الاحمر وسرعان ما حاصر ذلك الاسطول الذي كان يقوده حسام الدين لؤلؤ حاجب الملـك العـادة ميناء ايلـة واحرق العديد من مراكب الصليبيين وراح يتعقب الفـارة منها واذ وجد الصليبيون حراجة مواقفهم تركوا سفنهم وفروا الى الجبال ، ولكن حسام الدين استأجـر الخيول من الاعـراب في المنطقة وتعقب الصليبيين في الجبـال واسرهم جميعا وكان ذلك في شهر شبـاط سـنة ١١٨٣ م .

وقد ادت محاولة الصليبيين الاستيلاء على مكة والمدينة الـى تعاظم الجبهـة العربية الاسلامية وزيادة الحماسة لدى المسلمين في دخـــول الحرب ضد الصليبيين ولذلك زحف صلاح الدين في ايلول من تلك السنة بقواته على حصـن « الكـرك » في الاردن وحاصره وكاد يفتتحه لولا النجـدات التي تلقاهـا اميـر الحصن أرناط من مملكة بيت المقدس وبقية الامـارات الصليبية .

كانت معركـــة مرجعيون في لبنان من اهم المعارك التي مهـــدت لمعركـة حطين الكبرى ، وقد وقعت هذه المعركة في شهر محرم سنـة ٥٧٥هـ (١١٧٩) عند مرجعيون في اقليم البقاع شرقي جبل لبنـان فدارت الدائـرة على الصليبيين ووقع عدد كبير من قادتهم وامرائهم في اسر المسلمين كان منهم رئيس « فرسان المعبد » ، ورئيـس فرقـــة « المضيفين » ووقع في الاسر ايضا ريموند امير طرابلس وبولدوين امير الرملـة وهوغ امير طبريـة وغيرهم .

وقد بعث صلاح الدين ببعض اسرى الافرنج في مرجعيون وتحف ونفائس الى بغـداد فوصلتها قبل ان يمـوت الخليفـة العباسي المستضيء باللـه بايـام .

كان صلاح الدين قد وقع هدنــة مع ارناط صاحب الكرك مثل غيره من امراء الصليبيين وكان ارناط قد تعهد وفقا لتلك الهدنة ان لا يقــوم باي عمــل ضد الاراضي الاسلامية واهم من ذلك كله تعهد ارناط بــان لا يتعرض بالاذى لاية قافلــة اسلامية تمر عبر اراضيه سواء في ذلــك القوافــل التجارية ام قوافل الحجاج والمسافرين .

لكن نفس ارناط التي جبلت على الشر والخبث كاي عدو آخــر للعــرب والمسلمين ابت ان تلتزم بالعهد او تحترم المواثيق فما لبث ان نقض العهــد واغــار في اوائل سنة ١١٨٧ م على قافلــة اسلامية كبيرة كانت محملــة بالنفائس والسلع وهي في طريقها من القاهرة الى دمشق .

ولقد اعد ارناط لهذه القافلة كمينا من رجاله فوثبــوا عليهــا واستولوا على كل ما كانت تحمله من ثروة كما سلبوا رجال القافلة ما لديهم من مــال وسلاح وساموهم ســوء العــذاب .

وحين بلغت جريمة ارناط هذه مسامع صلاح الدين اقسم ليقطعن راس ذلك الوغــد اللئيم ، وليبدان الجهاد المقدس الاكبر ضد الصليبيين ، وليخرجهم من كــل شبر يتحكمون به في بلاد العروبة والاسلام .

وطبقــا لهذا التصميم قام صلاح الدين بحركة تعبئة شاملــة لجميــع القرى العربية والاسلامية وتهيئة مواردها البشرية والماديــة وقد اختار صلاح الدين ان يظل في هذا الدور في دمشق ومنها اخذ ينظم قواتــه في مصــر وحلــب والجزيرة وديار بكــر وغيرها من المناطــق التي كانت تديــن لحكمه او متحالفــة معــه .

الفصـــل الخامـــس

معركـــة حطـين

ارضـ المعركـــة :

تقــع منطقة حطين في قسم المرتفعات من سهل مرج بن عامر الذي يبدأ بمدينــة صفد جنوبي جبال الجليل . وتقوم هذه المرتفعات في القسم الشمالي من مرج بن عامر وهي عبارة عن تضاريس متعـددة يتــراوح ارتفاعهــا بين خمسمائة وستمائة متر وقد سميت هــذه التضاريـــس بالجبــال ومنها جبل طوران او طوقان الذي تقع قرية حطين عنده ، وجبل القمــر وجبل رأس الثمرة وغيرهــا .

والى الغــرب من مرج بن عامر يقع سهل صفورية بينما تقع بحيرة طبريــة الى الشرق منه وهي تمتد من الشمال الى الجنوب زهاء واحــد وعشرين كيلومترا ويبلغ عرضها حوالي اثنى عشر كيلومتر . بينما تقع مدينة صفورية في السهل المعــروف باسمهــا ، والى الشمال من مدينــة الناصرة في حين تقع مدينــة « طبريـــة » على الضفة الغربية من بحيرة طبريـــة .

والمنطقة المحصورة بين ضفة بحيرة طبرية الغربية وتضاريس مرج بن عامر تؤلف سهلا خصبــا يكثــر الماء والشجر فيها ، ومــا تمتاز بــه مرتفعــات مرج بن عامر انعدام المــاء فيها وكذلك انعدام الشجر لان كل ما ينمــو عليها لا يعدو بعض الحشائش والادغال التي تتحمل العطش ولا تنفذ جذورها في الاعمــاق وهي تظهر عادة في موسم الامطار وتظــل قائمــة حتى بعد ان تجف في موســم الصيف .

* * *

كان الصليبيون يحتلون سهل صفورية بكل مدنه وقراه كما كانــوا يحتلون الناصرة وجميع المدن والقرى القائمــة بينها وبين بحيرة طبريــة بما في ذلك مدينــة طبريــة ذاتهــا .

ووقبل ان يتحرك صلاح الدين من دمشق لخوض معركة حطين كان قد اعد خطة حكيمة للمعركة وقدر كل نتائجها تقديرا دقيقا . وبعد ان قلب النظر في تطورات خطته وعواقبها ووثق من نجاحها ، شرع بتنفيذها .

وكانت خطة صلاح الدين هذه تقضي القيام بحركة من شأنها ان تخرج الصليبيين من قلاعهم وحصونهم التي كانوا يتمركزون فيها واستدراجهم الى التلال والتضاريس الجرداء وبذلك يتم ابعادهم عن المناطق السهلية التي تتوفر المياه فيها وتسهل فيها حركة الكر والفر .

وطبقا لهذه الخطة تحرك صلاح الدين في اذار سنة ١١٨٧م من دمشق على رأس جيش كبير فاتجه نحو الجنوب حتى وصل الى راس الماء ، الى الشمال الغربي من وادي حوران فابقى هناك ابنه الافضل لتتجمع عنده الامدادات والنجدات من كل صوب اما صلاح الدين فقد واصل سيره بجيشه حتى وصل مدينة «بصرى» لحماية قافلة الحجاج العائدة من مكة والمدينة من ان تتعرض لاية غارة على يد أرناط واذ مرت تلك القافلة الى الشام بسلام في الحادي عشر من شهر ايار شرع صلاح الدين يهاجم حصني الكرك والشوبك .

ويبدو ان صلاح الدين ادرك بثاقب تفكيره ان ارناط سيتعرض للقوات العربية الاسلامية القادمة من مصر فيحول دون التقائها مع قوات صلاح الدين القادمة من الشام والعراق ولذلك اراد صلاح الدين ان يفسد خطة ارناط هذه بان يسارع الى مهاجمته في حصونه وان يحاصره فيها .

ولكي لا يضطر صلاح الدين الى الحرب على جبهتين فقد اتصل بامير انطاكية بوهيموند الثالث والدخول معه في هدنة كيما يتفرغ لمنازلة الصليبيين في جبهة واحدة .

واراد صلاح الدين ان يستفيد من تهادنه مع ريموند امير طرابلس ليقوم بحركة تظاهرية يحاول من ورائها مخادعة الصليبيين وابعادهم عن المنطقة التي يريد مهاجمتها فعلا . ولذلك ارسل صلاح الدين في نيسان من تلك السنة قوة استطلاعية مؤلفة من عدة آلاف اخترقت اقليم

الجليل بمدنه وقراه وسارت نحو عكا وقد وافق ريموند على مرور هذه القوة وانبأ سكان المدن الصليبية بان يغلقوا ابواب مدنهم كيلا يتيحوا للمسلمين فرصة الدخول اليها .

واذ وصلت هذه القوة الاستطلاعية الى مقربة من صفورية تصدت لها قوة صليبية فاشتبكت معها في معركة رهيبة في اوائل ايار سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى واسرى جاوزوا الخمسمائة شخص وعاد المسلمون بما اسروه وغنموه .

وكان من نتائج هذه الحركة الاستطلاعية ان اخذ الصليبيون يجمعون قواتهم في سهل صفورية وان نقض ريموند الثالث امير طرابلس الهدنة واعلن الحرب ، وعندئذ لم يعد امام صلاح الدين الا ان يشرع بتنفيذ خطته ويبدأ بالقتال .

* * *

استعرض صلاح الدين قواته ونظمها ونفخ فيها روح الحماسة والتضحية وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ الموافق للخامس والعشرين من حزيران سنة ١١٨٧ م وبعد صلاة الجمعة في ١٧ ربيع الثاني ٢٦ حزيران ، بدأ صلاح الدين زحفه من تل « العشترا » فعبر نهر الاردن عند ملتقاه بالساحل الجنوبي لبحيرة طبرية فوق جسر قرية الصنبرة التي تقع على مقربة من الطريق الرئيس الممتد من الاردن الى داخل فلسطين وكان عبوره النهر صباح يوم السبت السابع والعشرين من حزيران حيث عسكر عند قرية الاقحوانة على الضفة الغربية من نهر الاردن فاقام هناك مدة خمسة ايام انتظارا لخروج الصليبيين اليه من سهل صفورية .

كان صلاح الدين على علم تام بمنطقة التضاريس في مرج بن عامر ومنعرج طرقها وندرة مياهها ولا سيما في فصل الصيف .

وكان يأمل ان تثور ثائرة الصليبيين فيتحركوا من صفورية الى الاقحوانة رغم علمهم بوعورة الطريق ، واراد صلاح الدين ان يحرك

الصليبيين الى القيام بمثل هذه الحركة فأمر بعض جيوشه بان تتحرك الى كفر يسيت في اقصى الطرف الجنوبي من منطقة التضاريس ومن هنا اخذ يبعث بسرايا استطلاعية الى حيث تتجمع الجيوش الصليبية في صفورية .

ولما لم تجد كل هذه الحيل في اخراج الصليبيين من صفورية واستدراجهم الى منطقة التضاريس اقدم صلاح‌الدين على حركة ذات خطر عليه تماما ذلك انه تحرك يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الثاني الموافق لليوم الثاني من تموز ١١٨٧م شمالا الى الطريق الممتد بين طبرية وصفورية حيث زحف على مدينة طبرية بنفسه واستولى عليها ضحى ، واعتصمت زوجة ريموند امير طرابلس في قلعة طبرية وارسلت تطلب النجدة من الجيش الصليبي العام المعسكر في صفورية كانت حركة صلاح‌الدين هذه خطرة من الناحية التعبوية ذلك لان مؤخرته تستند على بحيرة طبرية فاذا اصيب بهزيمة فلا مجال امامه للتخلص من الاسر اما اذا استطاع هو ان يدحر الصليبيين فان في مقدورهم التخلص منه بالارتداد الى معاقلهم وحصونهم .

ما كادت اخبار سقوط طبرية تصل الى الصليبيين في بيت المقدس حتى اصدر الملك « غاي » اوامره بان تزحف الجيوش الصليبية الى طبرية لاستردادها من ايدي المسلمين لكن قبل ان تصدر الاوامر بهذا الزحف عقد امراء الصليبيين وقادتهم مجلسا حربيا في القدس حضره ريموند امير طرابلس الذي هرب بعد ان سقطت طبرية التي كان يدافع عنها بايدي المسلمين وكان ارناط من اشد المتحمسين للرد على صلاح الدين غير ان ريموند كان يعارض في التقدم نحو طبرية لانه ادرك الخطة التي دبرها صلاح‌الدين لهم ومما قاله ريموند في المجلس الحربي بالقدس « انه لامر ذو حماقة ان نخاطر بعساكرنا في ارض قفر امام صلاح‌الدين . وان صلاح‌الدين لابد من ان يرحل عن طبرية اذا لم نتقدم اليه وقد تركتها بارادتي للعدو كي احمي معكم مدينة اورشليم . وان طبرية اذا ضاعت فلن تضير المملكة اللاتينية بالقدس شيئا وان انقاذ طبرية يهمني شخصيا اكثر مما يهمكم انتم يا اصحاب السمو الامراء فهي خاضعة

لسلطاني وفيها امراتي واولادي وثروتي ، ولكن لا ارى ما ترونه من وجوب مهاجمتها لاننا حين نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا في الشرك الذي نصبه لنا صلاح‌الدين وليس من غرض له الا استدراجنا الى الخروج من صفورية لمنطقة صحراوية قاحلة في شهر تموز حتى نهلك فيها من العطش وحد السيف » .

ولكن ارناط وغيره خالفوا ريموند فيما ارتأه ، واتهموه بالخيانة لما كان بينه وبين صلاح‌الدين من عهود وما زالوا حتى حملوا الملك غابي على ان يصدر اوامره بالتحرك نحو طبرية .

وفي متنفس صبح يوم الجمعة الثالث من تموز تحرك الجيش الصليبي في حوالي خمسين الف محارب من سهل صفورية متوجها نحو طبرية وكان ريموند امير طرابلس على رأس مقدمة ذلك الجيش بينما تولى ملك القدس « غاي دي لوزينان » قيادة القلب الذي يؤلف اكثرية الجيش يعاونه في ذلك « ارناط » امير الكرك . اما المؤخرة فكان يقودها الفارس « فاليان » وهو اسير سابق لدى صلاح‌الدين اطلق سراحه على شرط ان لا يشترك ضده في قتال لكنه حنث بما اقسم به وحين وصلت انباء تحرك الجيش الصليبي في ذلك الصباح الى صلاح‌الدين هلل فرحا وقال « جاءنا بما نريد ونحن اولو بأس شديد واذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع ولا من فتحه وازع » .

كان صلاح قد قسم قواته الى ثلاثة اقسام جعل منها مقدمة من الخيالة الخفيفة انفذها للاتصال بمقدمة الصليبيين ترميها بانبال من بين الصخور والثنايا على جانبي الطريق الوعر الذي كان الصليبيون يسيرون فيه .

اما القسم الثاني وهو أكثرية الجيش فقد اعده على اهبة الاستعداد للاصطدام بقلب الجيش الصليبي عند تحركه الى امام .

واعد القسم الثالث لكي يطبق بحركة خفيفة على مؤخرة الصليبيين حين تتقدم وكان هذا القسم من جيش صلاح‌الدين وهو من الخيالة الخفيفة قد زودت بكميات هائلة من النبال والسهام بلغت سبعين حملا

ثم نقلهـا على ظهور الجمـال بمثابة الاحتياط المتحرك من السلاح .

واذ وصل الصليبيون الى بعد ثلاثة اميال عن بحيرة طبرية اصطدمت مقدمتهـم بمقدمـة المسلمين حتى اذا وصل الصليبيون الى « اللوبيا » وهو موضع في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ، اخذ منهم التعب مأخـذه وعانوا من نبال المسلمين وشدة العطش ما جعلهم يتوقفون في تلك النقطـة ليريحوا انفسهم وخيولهم وليطفئوا ظمأهم من بئر ماء تقع هناك وكم كانت خيبتهم كبيرة حين وجدوا تلك البئر وقد جف ماؤهـا ووجدوا بدلا من ذلك خيالة المسلمين وقد انتشرت في ذلك المكان القفـر الوعـر وهي لكثرتها قد سدت طريقهم الى بحيرة طبرية وسواحلهـا كانـت اكثريـة الجيش الاسلامي قد تمركزت عند قرية حطين في جبـل الطوران وكانت كتيبة من الخيالة ترقب الطريق وتحول دون وصول اية قوة من الصليبيين للوصول الى المـاء وبات الجيشان المتقابلان تلك الليلة وحين اصبح صباح السبت تقدم قلب الجيش الصليبي يريد اقتحـام مواقـع المسلمين والانحدار الى البحيرة فاصطدم به الجيش الاسـلامي ودار قتال شديد ضحى ذلك اليـوم واذ فشل الصليبيون في زحزحـة المسلمين عن مواقعهـم اقدمت مؤخرة الصليبيين وفيها ملك القدس لتدرك بحيـرة طبرية فلتقاهـا المسلمون بالنبال من كل صوب .

وزاد من حراجة موقف الصليبيين شدة العطش والحرائق التـي اشعلهـا المسلمون في الحشائش والادغـال فقد اخذت هذه تلفح الجيش الصليبي بالوقد والدخـان وتزيد في متاعبه واضعاف قـواه ..

وتمزق قلب الجيش الصليبي واحاط المسلمون به من كل الجهـات فاخذت كل قطعة منه تذوب في ايدي المسلمين سريعا .

وتجمعت قطعة كبيرة من قطع الجيش الصليبي حول حطين وسرعان ما وجدت نفسها محاصرة من المسلمين من كل الجوانب واذ ذاك لم يعد امـام افرادهـا الا الاستسلام بعد ان هلك منهم اكثر من عشرة آلاف رجـل .

كان من بين الذين وقعوا في الاسر غاي ملك القدس وارناط صاحب الكرك واميـر قلعـة جبيل ، وابن امير طبرية وغيرهم .

* * *

سرد المؤرخ ابن الاثير في كتابه الكامل قصة حطين وهو اوثق من كتب عن تلك المعركة واسهب في ذكرها وقد نقل ابن الاثير حديثا عن المعركة تحدث به اليـه الملك الافضل بن صلاح الدين الايوبي ومما قاله الافضل في حديثه ذاك « كنت الى جانب ابي في ذلك المصاف وهو اول مصـاف شاهدتـه فلمـا صار ملك الفرنج على التـل في تلك الجماعة حملوا حملة منكـرة على من بازائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدي . فنظرت اليـه وقد علتـه كآبة ، واربد لونه ، وامسك بلحيته ، وتقدم وهـو يصيح في جند المسلمين « كذب الشيطان » فعاد المسلمون على الفرنـج فرجعـوا فصعدوا الى التـل . فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهـم صحت من فرحي « هزمناهـم » . فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانيـة مثل الاولى والحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل هو مثلما فعـل اولا . وعطف المسلمون عليهم فالحقوهم بالتـل فصحـت انا ايضـا « هزمناهـم » فالتفت والدي الي وقال « اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلـك الخيمـة » .

فهو يقـول ذلك فاذا بالخيمة قد سقطت فنزل السلطان عن فرسه وسجـد شكرا لله تعالى ، وبكى من فرحه .

وكان سبب سقوطهم ان الفرنج لما حملوا تلك الحمـلات ازدادوا عطشـا وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه فلـم يجدوا الى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الارض ، فصعـد المسلمون اليهـم فالقوا خيمة الملك ، واسروهم عن بكـرة ابيهم . وكثر القتل والاسر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن ان المسلمين اسروا واحدا ، ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا واحدا . » .

* * *

كان صلاح الدين واخوه الملك العادل وابنه الافضل وكبار قادته وحاشيته في خيمة السلطان عندما جيء بكبار اسرى الصليبيين اليه .

كان غاي ملك القدس يلهث من شدة العطش فاجلسه صلاح الدين الى جانبه وامر له بجلاب مثلج من نقيع الزبيب فشرب بعضه وطفأ به ظمأه ثم مد يده بالكأس الى ارناط ولكن صلاح الدين منعه لانه لم يأذن لارناط بان يشرب امامه .

وكان « ارناط » هذا قد خرق اتفاقات الهدنة مع صلاح الدين عدة مرات وقد اقسم صلاح الدين ان ينتقم منه ان ظفر به ومما يروى عنه انه قال « كنت نذرت دفعتين إن ظفرت به ، احداهما لما اراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما اخذ القفل غدرا » .

وابى صلاح الدين ، كعادة العرب ، ان يقتل اسيرا في حضرته ولكنه لكي يبرىء ذمته من القسم الذي قسمه عرض عليه الاسلام لعله ينجو باعتناقه من القتل فرفض ارناط ذلك رفضا باتا . وعندئذ قال صلاح الدين « ترى لو ركبت انا راسي ، وسلكت مسلكك ، ثم وقعت اسيرا في قبضتك فأي المواقف يكون موقفك مني ؟ فأجاب ارناط في غلظه وغفلة وقحة « اقطع راسك دون تردد » فانتفض صلاح الدين وصاح به « يالك من وقح اني خيمتي وتحت رحمتي تجيبني بهذه اللهجة ؟ » ثم تقدم منه وسل خنجره وضربه ضربة حلت كنفه واشار الى الحراس ان يجهزوا عليه فاخذته السيوف وطرحت جثته خارج باب الخيمة .

وحين رأى غاي ماحل بارناط اصابه الفزع فامنه صلاح الدين وطيب خاطره وقال له « لم تجر عادة الملوك ان يقتلوا الملوك ، واما هذا فانه قد تجاوز حده فلقى ما لقى » .

الفصل السادس

تحرير بيت المقدس

لم يضع صلاح الدين ورجاله ما اصابوه من نصر ساحق في حطين ولم يأخذ الزهو بذلك النصر منهم مأخذه فقد تابعوا الزحف بعد استسلام الصليبيين في حطين مباشرة فاستولوا على طبرية في اليوم الخامس من تموز اذ سقطت قلعتها المحصنة المحاصرة بايديهم وسمحوا للاميرة « اسجيقا » زوجة ريموند واولادها بان يغادروا القلعة بأمان الى بيت المقدس حيث افلت زوجها من الوقوع في ايدي المسلمين في معركة حطين او ان المسلمين سمحوا له بطريق من الحصار الذي ضربوه فهرب ناجيا بنفسه .

وواصل المسلمون زحفهم فتوجهوا الى الساحل وحاصروا عكا واحتلوها في اليوم العاشر من تموز وحرروا منها اربعة آلاف اسير من المسلمين واستولوا على ما فيها من اموال ودخائر ومتاجر ضخمة لا تعد صنوف بضائعها وانتشرت جيوش المسلمين تزحف بامتداد ساحل البحر الابيض المتوسط شمالا وجنوبا وتتجه الى داخل فلسطين ايضا فسقطت في ايديهم قلاع نابلس وحيفا وقيصرية وصفورية والناصرة وغيرها وقصد صلاح الدين نفسه مدينة « تبتين » في جبلى بني عامر والمطلة على ميناء بانياس فاحتلها ، ثم سار منها الى صيدا فاستسلمت له وغادرها الى بيروت فاذعنت لسلطانه .

وعاد صلاح الدين قافلا الى فلسطين مع الساحل ايضا لكنه ابتعد عن « صور » التي اخذت بقايا الصليبيين تتجمع فيها ، فدخل مدينة الرملة ثم انتقل منها الى « دارون » فعسقلان .

وتوجه بعض جنوده الى الجنوب فاحتلوا غزة والبطرون وبيت جبرين وانتزعوا من الصليبيين بعض القلاع المحيطة بمدينة القدس ذاتها .

والحقيقة ان الصليبيين اصبحوا بعد هزيمتهم في حطين تحت رحمة صلاح الدين ولذلك تتابعت انتصاراته السريعة عليهم ومع ذلك فقد كان صلاح الدين في كل حركاته العسكرية بعيدا عن التطرف متمسكا باهداب الدين الاسلامي وتعاليمه ممتلئا عدلا ورحمة وتسامحا مما شهد به غلاة المؤرخين الغربيين .

تبدو حكمة صلاح الدين الحربية جلية بارزة في تنفيذ الخطة التي سار عليها بعد حطين . فهو لم يشرع بمهاجمة القدس مباشرة واحتلالها وانما عمد بدلا من ذلك الى احتلال الثغور على الساحل لكي يمنع وصول اية امدادات ترد الى الصليبيين من اوربا ومن ناحية اخرى لكي يطوق بقاياهم داخل بلاد الشام وفلسطين فلا يترك لها مجالا للهرب فضلا عن احتلاله لبعض الموانىء العامة مثل عكا وبيروت وحيفا وغيرها ، قد جعل خط المواصلات البحري بين مصر والشام سالما ومأمونا .

واذ نفذ صلاح الدين خطته هذه ودانت له كل تلك الثغور وغيرها من المدن العامة في الداخل اخذ يعد العدة لمهاجمة القدس وتحريرها وتقويض حلم اوربا القديم في السيطرة على هذا الجزء من الوطن العربي الاسلامي الكبير .

* * *

اتخذ صلاح الدين مقرا له في مدينة عسقلان التي طالما استخدمها الصليبيون للاغارة على مصر وجاءته الجيوش من كل مكان فتجمعت لديه قوة قدرها المؤرخون في وقتها بستين الف رجل كما اشتركت النساء والصبية في هذه القوة لاول مرة بعد معركة عكا التي شارك الصبية والنساء فيها مشاركة فعلية .

حتى اذا انتظمت هذه القوة وتجهزت بالذخيرة والمتاع والسلاح سار بها صلاح الدين متوجها الى القدس فنزل عند الجانب الغربي منها في منتصف رجب ٥٨٣هـ الموافق للعشرين من ايلول سنة ١١٨٧م .

لم يشأ صلاح الدين ان يسارع في مهاجمة القدس فورا فقد كان

يريد دخولها صلحا وان لا يجري اي قتال داخلها بالنظر لحرمتها عند المسلمين والمسيحيين على حد سواء .

وكان معظم الصليبيين قد التجأوا الى القدس ليحتموا فيها ومع كثرة عددهم فقد كان ينقصهم القائد الشجاع الذي يستطيع تنظيم عملية الدفاع عن المدينة غير ان الحظ هيأ للصليبيين داخل القدس مثل هذا القائد المنشود في شخص « باليان » امير الرملة .

كان فاليان هذا الذي يسميه مؤرخو العرب (ابن بارزان) قد وقع اسيرا في يد صلاح الدين في معركة حطين وقد سمح له صلاح الدين بان يذهب الى بيت المقدس ليرى زوجته واولاده على ان يعود منها دون ان يبيت فيها ليلة واحدة واعطى صلاح الدين عهدا بذلك .

غير ان فاليان ما ان دخل المدينة وشاهد آثار الفزع البادية على سكانها وانهيار الروح المعنوية لديهم حتى أخذته عصبيته الصليبية فحنث بالعهد الذي قطعه لصلاح الدين وشرع يعد المدينة لحصار طويل ويجمع فيها الرجال للدفاع عنها .

وفي اللحظة التي نزل فيها صلاح الدين عند الطرف الغربي من بيت المقدس اخذ يطوف حول السور الذي يحيط بها يتفحصه بدقة ليعرف نقاط الضعف فيه ، وليبحث عن المواقع التي يمكن اختراقها منه وقد امضى في ذلك خمسة ايام كاملة .

واخيرا وجد بغيته في خندق محفور في الناحية الشمالية من السور فسحب مجانيقه ونصبها عند ذلك الخندق واخذ يستعد للهجوم ، ومع ذلك لم يشأ صلاح الدين ان يعمد الى الغدر أو يهاجم المدينة بغتة وانما فضل ان ينذر سكانها بتسليمها اليه وفق شروط فان رفضوا حق عليهم العقاب بالحرب .

وجه صلاح الدين الى اهل القدس انذاره الذي ضمنه شروطه وهي شروط سخية معتدلة فقد طلب ان يدفع عن كل رجل مقتدر عشرة دنانير وعن كل امراة خمسة دنانير ، وعن كل طفل دينار واحد اما الفقراء فكان

عليهم ان يدفعوا فدية مخفضة وكانت هذه الفدية تؤخذ ممن يريدون ان يغادروا المدينة بكامل ما يملكونه من مال ومتاع اما الذين يرغبون البقاء فيهـا فانهم يعفـون من اية ضريبة كانت .

وكان مما قاله صلاح‌الدين في انذاره ذاك « انني انا نظيركم ايضا واعـرف ان اورشليم هي بيت الله ولست آتيا لكي ادنس قدسيتهـا بسفك الدمـاء . فعليكم ان تدعوهـا ، وانا اكفيكم امركم ، واهب لكم من الارض بقـدر ما تستطيعون ان تعملـوا فيـه » .

غير ان عناد هرقليوس بطريرك القدس واحلام باليان جعلت المدينة ترفض انذار صلاح‌الدين وترد عليه قائلـة « اننا لا نسلمك المدينـة ولا نبيعهـا » .

* * *

لم يبق امام صلاح‌الدين سوى ان يهاجم . وكان الصليبيون قـد اعدوا لهم قـوة خارج سـور المدينة للدفاع عنهـا وحين اصطدمت هذه القـوة بالمسلمين تراجعت مذعـورة الى داخل السـور .

ووصل المسلمون الى الخندق ثم تجاوزوه وسرعان ما احدثوا ثغـرة كبيـرة في السـور وشرعوا يكدسون الاخشاب عندها ، ليشعلـوا النار فيهـا ، ولينقلـوا الحريق الى داخل المدينـة .

وحين راى الصليبيون انفتاح تلك الثغرة في السور وما عزم عليـه المسلمـون من امر الحريق ، دب الرعب في قلوبهم واضطربت صفوفهم وايقنوا انهـم هالكون واذ ذاك اتفق اسيادهم على ان يطلبوا الامان مـن صلاح‌الدين ويسلموه المدينة من دون قتـال .

وسـارع صلاح‌الدين الى تلبية طلب الامان على الفور ..

كان ذلك صباح يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ الموافـق الثالث من شهر تشرين الاول سنة ١١٨٧م حين تقـدم صلاح‌الدين بنفسه فسلم البطريرك صك الامان ودخل المدينة فقصد بيت المقـدس وادى صلاة الجمعة فيه ومعه اخوه الملك العادل بعد ان انزل

الصليب من على قبة الصخرة وازيلت التصاوير التي نقشها الصليبيون عليهـــا .

والقى خطبة الجمعة بين يدي السلطان نفسه القاضي محي الدين بن الزكي الذي رافق صلاح الدين من دمشق فعهد اليه بالقاء خطبة الفتح التي جمع فيها كل ما ضمه القران الكريم من تحميــدات .

وبدأ بعد صلاة الجمعة السماح لمن يدفعون الفدية ان يغادروا المدينة وكان من بينهم بطريرك القدس الذي دفع عشرة دنانير فدية عن نفسه لكنه حمل معه كنوز الكنيسة ومجوهراتها في عربات عدة سارت من خلفه ، دون ان يبالي بالفقراء من قومه الذين عجزوا عن تدبير ذلك المبلغ التافه .

وبلغ ما افتدى الصليبيون به انفسهم من نقد حوالي مائتين وعشرين الف دينـــار وزاد عدد اسراهـــم عن الثلاثة الاف شخص .

وقد حفظ المسلمون للصليبيين في القدس اموالهم وحرياتهم فلـم يمسوهم بادنى اذى . واظهر صلاح الدين ورجاله منتهى التسامح مع الفقـــراء حيث سمحوا في لحظة واحدة لاكثر من الف وخمسمائة ان يغادروا المدينة من دون دفـــع اية فديـــة .

واحسن المسلمون معاملة نســاء الصليبيين فســـــمحوا اليهن بأن يخرجن مع اموالهـــن وخدمهن وحشمهن معززات مكرمـــات .

وفضلا عن ذلك امر صلاح الدين بان ترافق المهاجرين من بيت المقدس فصائل من الفرســـان المسلمين تسهر عليهم في الطريق ، وتحول دون وقوع اي اعتـــــداء الى ان يصلوا الاماكـــن التي يقصدونها .

وحين وصل صلاح الدين في تطوافه بالمدينة المقدسة الى كنيســـة القيامـــة امر ان يترجل من معه عن خيولهـــم ثم خاطبهم قائلا « لقـــد اراد بعض الامراء الذين وفدوا علي امس هدم هذه الكنيسة وازالــــة معالمهـــا ولكنني رفضت انهم مخطئون في ذلك اننا لم نات للهدم والتخريب لو فعلنـــا ذلك لاتينا عمـــلا لن يرضى الله عنه . سيبقى هذا البناء قائمـــا كمـــا اراد عمـــر بن الخطاب رضى الله عنه ان يبقيه قائمـــا » .

وعلى اثـــر ذلك تقدم اليه اربعة من الرهبـــان يطلبون الاذن منـــه بالبقـــاء في الكنيسة وممارسة الطقوس المسيحية فيها ، واعفاءهم من

الضرائب وما شاكلهـا وقد اجاب صلاح الدين طلبهم في الحال وقـال لهـم « سيكـون لكم ما تريدون ، ولن ادع احدا يقول ان صلاح الديـن رفض طلبـا لواحد منكـم » .

وبلغت رحمة صلاح الدين بسكان المدينة من الصليبيين انه كان يطوف بالاحيـاء الفقيرة منهم ليلـة عيد الميلاد ويطرق الابواب ويهنىء السكـان بذلك العيـد .

* * *

وجاءت فلسطين رسل الملوك بالتهانيء رسل الـروم وخراسـان والعـراق وحاجب العجم السلجوقي ومن انحاء مصر والشام .

وكان عاما خصبا كثر فيه الخير وعم النصر والفرح وكان نورالديـن محمود زنكي قد صنع قبل ان يموت منبرا ونذره للقدس فلما فتـح صلاح الدين بيت المقدس بعث بمن جاء بذلك المنبر فنصبه في المسجد الاقصـى ..

المصـــادر

١ ـ الكامل في التاريخ : لابن الاثيـر .

٢ ـ وفيـات الاعيـان : لابن خلكان .

٣ ـ حيـاة صلاح الديـن : احمـد بيلي .

٤ ـ ايـام صلاح الدين : عبدالعزيز سيد الاهل .

٥ ـ الناصر صلاح الديـن : حبيب جاماتي .

٦ ـ الناصر صلاح الدين : سعيد عبدالفتاح عاشـور .

٧ ـ صلاح الدين الايوبي : قدري قلعهجي .

٨ ـ الحروب الصليبية : تاليف انتوني ويست، ترجمة شكري محمود نديم

٩ ـ The decisive battles of the western world : by General J. F. C. Fuller .

١٠ ـ نظرة جديدة الى الحروب الصليبية : سعيد عبدالفتاح عاشور .

